حائط المبكى ... وابحث عن القط !!

دكتور/سعيد اسماعيل على

عندما كنا طلابا نطلب المعرفة الفلسفية فى كلية الآداب بجامعة القاهرة فى الخمسينات ، كان يخيل لمثلى أن هؤلاء الاساتذة الذين يدرسون لنـــا كالدكاترة عثمان أمين وابراهيم بيومى مدكور وزكى نجيب محمود ويوسف مراد وأحمد فؤاد الأهوانى ومحمد أبو ريدة ، ليسوا بشرا كسائر خلق الله ، يريدون أحيانا ، فتقف أمام ارادتهم عقبة هنا وعقبة هناك ، وانما هم ، وان اتخذوا شكل البشر ، يملكون مفاتيح هذا الكون ... أليســـوا هم الذين يحتلون قمة المعرفة أمامنا ؟ أليسوا هم الذين يمثلون أعلى مرحلة فى سلم العمل التعليمى ؟ ان عالم أحاديثهم يدور حول أساطين العلم والفكر فى العالم مثل أفلاطون وأرسطو وكانط وهيجل وديكارت ورسل وماركس ... ان العملة المفاهيمية التى يتداولونها هى : العقل ، والمعرفة ، والفكر والماهية والوجود.

ما الذى كان يجعلنا نظن هذا كله ؟

أنه تصورنا لمصدر « السلطة » !

فى ريفنا المصرى ، ومنذ زمن لم يعد قائما الآن ، كـــان الذى يملك « علما » يستحوذ على قدر من التقدير والاحترام يفوق هذا الذى يحظى به أى ممثل لسلطة الحكومة .. عمدة .. مأمور .. شيخ بلد .. الخ . كان ممثلو السلطة الحكومية بيدهم القانون والعسكر ، لكنهم كانوا يمثلون أمام الجميع ، قوة التسلط والقهر والبطش وبالتالى ، لم يكن احترام الناس لهم الا خوفا من بطشهم أو طمعا فى رضائهم !

أما هؤلاء الذين « يعلمون » ، فلم تكن بأيديهم سلطة قانون ولا عسكر، ومع ذلك كان يرتبط بكون الذين « يعلمون » يمثلون « العلم الدينى » ، ومن ثم يكون ما يحظون به من تقدير واحترام مرتبطا بمكانة الدين فى قلوب أهل الريف ، الا أن هذا التقدير وذاك الاحترام انسحبا على كل « متعلم » حتى ان

الحاصل منذ أكثر من نصف قرن على « الابتدائية » كان دائما شخصية مرموقة يهرع اليه كثيرون يطاردون منه الرأى والمشورة ، واذا وصل الى رأى ، انصاع له الجميع ..

وهكذا كانت « المعرفة » قوة ... وكان « العلم » سلطة .

ومن هنافعندما نجىء نحن من القرى لنجلس أمام أساتذة الجـــامعة، كان طبيعيا أن يكون هؤلاء امامنا ليسوا مجرد « أساطين » علم ومعرفة ، وانما هم « أساطين » حياة .. وقادة مجتمع .. فاذا ضاقت بمثلى السبل ، وأمسكت بتلابيبه المشكلات ، كانت عقول أمثالنا تتصور أن مثل هؤلاء الأساتذة حملة المعرفة ، وأعلام الثقافة ، بيدهم مفاتيح الحل والربط ، وعلى أيديهم تتبـــدد الغيوم وتنقشع السحب لتسطع شمس الاستقرار والطمأنينة . وعندما كنـا نقرأ فى تاريخ كبار المفكرين أمثال طه حسين أن (الملك) كان يقابل الـذين يسافرون فى بعثات للحصول على درجة الدكتوراه ، بذر فى أذهاننا ، أن هؤلاء المفكرين لابد أن الحكومة تستند الى رأيهم ومشورتهم !

ومن هنا كان حلمنا .. وكان دعاؤنا ، بأن يهب الله لنا من لدنه رشدا فنصبح من هذا النفر ، لا لشىء الا أملا فى أن نصحح مسار المجتمع ونصلح ما اعوج من شأنه !!

واتخذنا الأســـباب ..

حتى اذا انصرم بعض قليل من الستينات ، تحققت الخطوة الأولى نحو الأمل المرجو ، بعد انتقالنا الى أرض أخرى من تربية عين شمس .

بطبيعة الحال ، فان فترة (المعيدية) قد قربتنا من هذا العالم الـذى كان يسحرنا ، وان لم تجعلنا بعد ، بعضا منه ، لكنها ، والحق أقول ، قد خففت الى حد كبير ، جزءا غير يسير من هالات التقديس التى كنا نحيط بها « دكاترة » العلم أيا كانت فروعه ومجالاته .

حتى اذا أفاء الله علينا برخصـــة الدكتـــوراه ، وانتسبنا الى الهيئـة التدريسية بالجامعة ، أخذنا نشمر عن سواعدنا لنمسك بمفاتيح الحل والربط ،

ولنبدد الغيوم والسحب ، فاذا بنا نكتشف أن ذلك كان كونه خرط القتاد ، كما يقولون ، فالمدرسون بالجامعة ، هم فى أدنى السلم الجامعى ، ولا يملكون من الأمر شيئا ٠٠ وكم من مشروعات وأمانى حاولنا أن نسعى الى تحقيقها حلا لمشكلات ، واقامة لنظم ، ودعوة لاتجاهات ، فيوأد كل ذلك فى مهده ، رفضا ، وحربا ، أو تثار من حولها الشكوك وتزرع فى طريقها الأشواك ، أو يخوف كل من يحاول أن يتجمع ليعين ويساعد مدرسو الجامعة ، لا يكفى اذن أن يملكوا فكرا وعلما ، فهم يفتقدون سلطة اتخاذ القرار ، وأمامهم سياق حواجز عنيف ومخيف ، وهؤلاء الذين يمسكون مقاليد الأمور بأيديهم ، وتكون أعمالهم موضع النقد والاتهام ، هم الذين يقررون اذا ما كان المدرسون يستحقون أن يكونوا أساتذة مساعدين ام لا ؟!

ومن هنا ، فقد وقع فى ظن أمثالنا فى المرحلة الأولى من الانتساب الى هيئة التدريس ، أن الحلم الذى طالما داعب خيالاتنا ، لم يزل بعد بعيدا ، انه لكى نصل اليه ، فلابد وأن نكون أساتذة !!

شيئا فشيئا يتبين لنا أن المسألة ليست مسألة « رأى » و « فكر » و « علم » ، وانما هى « سلطة موقع » ٠٠

وبعد رحلة طويلة وصلنا بها الى « الأستاذية » الا أنه قد تأكد لنا أنها إذا كانت تمثل « قمة » الهرم الجامعى العلمى ، الا أن هذا الهرم العلمى كله يظل دون هرم آخر هو هرم السلطة « التنفيذية » ٠٠ تأكد لنا أن الحل لا يجىء برأى القواعد ورغبات (الناس اللى تحت) ، وانما هو دائما مربوط بقرار لا يجىء الا من (الناس اللى فوق) ! على الرغم من كل هذه الصور والأشكال الخادعة من مجالس الأقسام واللجان الجامعية والمجالس التى لا حصر لها ٠٠ سلطتها محدودة بالفروع والتفاصيل والجزئيات ، لكن السياسات العامة ، والفلسفة الرئيسية والخطوط الأساسية والمبادىء الحاكمة ، فهذه المجالس لا تصنعها ولا تضعها وانما « تنفذها » ؟!

كان طبيعيا فى ظل مثل هذا المناخ أن ترقى أحلام كثيرين فى هذا الجهاز العلمى الكبير ، أن يصبح الواحد منهم من أصحاب السلطان الجامعى ومادام هذا لا يتأتى دائما بقوة الدفع العلمى وحدها ، كان من الطبيعى كذلك

أن يسدد منطق « المسايرة » لا « المغايرة » ، وتعلو القيم المرتبطة بالمثل السائر « اللى تغلب به ٠٠ العب به » !

ثم هيأ الله لنا مواقف ، زادت القضية اشكالا وغموضا ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم !

هيأ الله لنا أن نشارك فى نوعين مستمرين من الاجتماعات : النوع الأول ، الجمهرة الكبرى من أعضائه ، رؤساء جامعات حاليين وسابقين ، والنوع الثانى ، الجمهرة الكبرى من أعضائه ، وكلاء ووزراء تعليم وتربية حاليين وسابقين ، فضلا عن عدد من العمداء سواء فى النوع الأول أو الثانى

كانت المفاجأة المؤلمة ، أن النغمة السائدة فى النوع الأول هى ما يشبه البكاء على الأطلال ، وكلمات الأسى وعبارات الحسرة على كثير من أوجاع التعليم الجامعى المتمثلة فى مشكلات وأزمات سواء منها مايتعلق بالسياسات العامة أو نظم القبول ، أو المناهج والمقررات أو المسائل المالية ٠٠ الى غير هذا وذاك من هموم التعليم الجامعى ! ٠

ولا تختلف النغمة السائدة فى النوع الثانى عن تلك ، فهى ولولة مستمرة، ونعى دائم للحال الذى وصلت اليه المدارس فى مختلف المراحل ، وشكوى وشكوى موجعة مما يحاصر مراحل التعليم من صعاب وعقبات تنوء بحملها الجبال !

وكان لابد وأن يقفز تساؤل الى ذهنى ، وأنقله الى هؤلاء وهؤلاء : ألستم أنتم الذين سيرتم وتسيرون التعليم الجامعى ؟ وألستم أنتم الذين سيرتم وتسيرون التعليم ما قبل الجامعى ؟ فان كانت هناك صور خلل وقصور فعلى أيديكم تمت ، وان كانت هناك سلبيات وثغرات فهى غرسكم ، واذا كانت هناك اقتراحات وآمال ، فعلى أيديكم يمكن أن تتم !

وتجىء الاجابة من هذا الفريق وذاك : « ماكانش ينعز » !

ويفسرون ٠٠ ويحاولون الايضاح ، فتتكاثف أمامى الغيوم ، وتتكاثر السحب وأصرخ من كل قلبى : اذا ، لماذا النقاش ؟ ولماذا الاجتماعات ، مادام

الأمر يصل هكذا الى طريق مسدود ٠٠ الى سقف القيادة التعليمية والقيادة الجامعية ، فتلمس أنها مسلوبة الارادة ، وفى أحسن الأحوال محـــدودة الحرية ، مقيدة الحـــركة ؟

ويهمس فى أذنى واحد من الأصدقاء : لابد من اتاحة الفرصة للناس كى « يفضفضوا » و « وينفسوا » عن أنفسهم حتى اذا عادوا الى بيـوتهم أو مكاتبهم ، زال التوتر وهدأت الأعصاب ، فيستمرون فيما هم عليه ، وكفى الله المؤمنون القتال ؟ !

وهذا البكاء على الأطلال الذى نشير اليه فى أروقة الجامعات العربية وأجهزة التعليم ، تستطيع أن تلمس مثله تماما فى مختلف الكتابات التى تجرى على أقلام المثقفين وألسنتهم فى كل رجاء من أرجاء العالم العربى ٠٠ فى مقالاتهم ٠٠ فى بحوثهم ٠٠ فى كتبهم ٠٠ فى منتدياتهم ٠٠ فى مؤتمراتهم: نقدا حادا للأوضاع القائمة ، كل فى مجاله ، اقتصاد أو صناعة ، أو تجارة ، أو تعليم ، أو زراعة ، أو ثقافة أو فن ٠٠ الخ ٠ تشخيص ممتـاز للمشكلات ، وتحليل جيد للاسباب والعلل ، ووعى عجيب بالكثير من الأبعاد والزوايا ، وتنوع مثير فى الاجتهادات وزوايا الرؤية ٠٠ ومع ذلك تظل المشكلات كما هى ٠٠ ويتوالى عقد المؤتمرات ، وتجرى بحوث جديدة على نفس المشكلات ، ليطرح نفس التشخيص وتبرز نفس الحلول وان تزين فى أشكال لفظية جديدة، ثم يعود المسلسل مرة أخرى ليبدأ مسيرته من جديد ٠

بل انك ، اذا استقرأت كتابات غير العرب بحثا عن صور نقدهم لمجالات الحياة والثقافة والتعليم فى العالم العربى ، فسوف تلمس أن نقدهم ، مهما احتد ، فلن يصل الى درجة احتداد نقدنا نحن لأنفسنا فى مختلف كتاباتنا فى شتى المجـــالات ؟ ٠٠

هل تحول التعليم ، وتحولت الثقافة فى العالم العربى الى حائط مبكى ؟! فى دراسته الممتازة عن (سيكلوجية الانسان المقهور) ، يشير الدكتـــور مصطفى حجازى الى أن الانسان الذى يتعرض طويلا لقوى البطش والقهـــر والاستغلال يعيش انسانا مسحوقا ، يعانى من مشاعر الدونية والعجـــز ، يفتقر الى ذلك الاحساس بالقوة والقدرة على المجابهة الذى يمد الحياة بنوع

من الحيوية والايجابية ٠٠ تبدو الأمور لمثل هذا الانسان المسحوق ، وكأن هناك باستمرار ، انعداما فى التكافؤ بين قوته وقوة الظواهر التى يتعامل معها ، ومن ثم يجد نفسه فى أحيان كثيرة فى موقع المغلوب على أمره « يفتقد الطابع الاقتحامى فى السلوك » ٠٠

ومن الأساليب الدفاعية التى يلجأ اليها الانسان المقهور : أن يتوحد بقاهره فيوجه عدوانيته الى ذاته هو كمقهور على شكل مشاعر ذنب ودونية والحط من قيمته الذاتية ، بل ويمتد ذلك الى التبخيس لقيمة الجماعة الأصلية التى ينتمى اليها « وينطلق المرء فى مجموعة أحكام سلبية ، تجعله لا يرى خيرا أو عزة فى ذاته ٠ انها مصدر التقصير ، ومجمع العيب وموضع الهوان ٠ وصب الحقد على الذات لعجزها وفشلها فى التصدى للمتسلط أو مجابهة قانون الطبيعة ، يتغذى من مشاعر ذنب شديدة ترافقها بالضرورة ميول لتدمير الذات » ٠

عندما كان اللورد كرومر يمثل الاحتلال البريطانى فى مصر فى أوائل عهده، نشطت حركة الهجوم عليه وعلىجنوده على صفحات الصحف المصرية. ورأى بعض مساعدى كرومر ، أن الأمر قد تجاوز الحدود ، فذهبوا اليه يرجونه اتخاذ اجراء ما لوقف حدة هذا النقد والهجوم ، فاذا به يقول : اتركوهم يقولون ما يريدون ، وسوف نفعل نحن ما نريد !! ان العربى عندما يكتب أو يخطب ناقدا ، يظن أن هذا الجهد الكلامى » هو نهاية المطاف ، فتهدأ نفسه ويخف توتره ، لكنك اذا منعت هذا النقد وذاك الهجوم ، فان طاقات الغضب المكبوت ستتحول الى طاقة (تحريك) وفعل ايجابى !!

ويبدو أن بعضا من أولى الأمر فى عالمنا العربى ينهجون نفس النهج فيتباهون بأنهم قد أتاحوا ديمقراطية وحرية فى مجتمعاتهم ، فيندفع كثير من الكتاب والمفكرين الى النقد ، وعندما يجدون أن الحال هو الحال ، تحولوا الى نقد الذات والوقوف أمام حائط المبكى !

لقد درجت العادة عندما يعز علينا حل الاشكال ، أن نضرب المثل بمجموعة الفئران التى تعبت وضاقت بها السبيل أمام هجوم القطط عليها ، فاقترح أحدهم أن يعلقوا جرسا فى رقبة القط ، حتى يحسوا به اذ هم واتجه

اليهم ، فارتاحوا الى هذا الاقتراح ، فلما بدأوا ينتقلون الى التنفيذ ، تساءلوا: فمن ذا الذى يمكن أن يعلق الجرس فى رقبة القط ؟ واذا بالجميع يصلون الى طـــريق مســـــدود ..

وقد كدنا أن نستخدم هذا المثال النموذجى ، لكننا اكتشفنا مأزقا أدهى وأمر ، فليست القضية هى من يعلق الجرس فى رقبة القط ، ولكنها فى تحديد هذا القط والكشف عنه ؟ !